

أثر الرماني في الدرس البلاغي العربي وتحولات المصطلح

The Impact of Rummani in the Arabic Rhetorical Lesson and the Transformations of the Term

د. عبد الإله تنافعت: أستاذ بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، جهة درعة تافيلالت - المغرب

Dr. Abdelilah Tanafaa't: Professor at the Regional Academy of Education and Training, Drâa-Tafilalet Region – Morocco.

Email: abdelillahtana@gmail.com

DOI: <https://doi.org/10.56989/benkj.v5i3.1398>

المخلص:

يعد أبو الحسن علي المعروف بالرماني من أبرز علماء البلاغة في القرن الرابع الهجري، وهو أيضا واحد من أعلام المعتزلة، وقد انعكس ذلك على منهجه في تحليل الأساليب البلاغية. ويعد كتابه النكت في إعجاز القرآن من المؤلفات المهمة والمتميزة في البلاغة العربية عامة، وفي الدراسات الإعجازية خاصة، حيث قدم فيه رؤية بلاغية دقيقة لمفهوم الإعجاز البلاغي، مستفيدا ممن عاصره أو سبقه، إلا أن دوره لم يقتصر على مجرد الجمع والنقل، بل تعداه إلى استحداث مصطلحات جديدة، وتحديد العديد منها بكثير من الدقة والوضوح. وقد حصر أوجه الإعجاز البلاغي في عدد من الظواهر البلاغية، منها الإيجاز والتشبيه والاستعارة، وغيرها. وقد مهدت آراؤه في هذه الوجوه الطريق أمام تطور الدراسات البلاغية في العصور اللاحقة وفي إثراء المصطلحات البلاغية، وذلك من خلال تأثيره الواضح على كثير من البلاغيين الذين جاؤوا من بعده مثل الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهما، على أن هناك طائفة أخرى من البلاغيين الذين خالفوه الرأي في كثير من القضايا بشكل كلي أو جزئي، وفي مقدمتهم ابن سنان الخفاجي، مما أسهم أيضا في إغناء النقاش في الحقل البلاغي.

الكلمات المفتاحية: الرماني. علماء البلاغة. المصطلحات البلاغية. الدراسات البلاغية. إعجاز القرآن

Abstract:

Abu al-Hasan Ali, known as al-Rummani, is one of the most prominent rhetoricians in the fourth century AH, and he is also one of the most prominent Mu'tazilites, and this was reflected in his approach to analyzing rhetorical methods. His book *Al-Nukat fi Ijaz al-Quran* is one of the most inspiring and distinguished works in Arabic rhetoric in general, and in miraculous studies in particular, as he presented a precise rhetorical vision of the concept of rhetorical miracles. However, his role was not limited to merely collecting and transmitting, but also to introducing new terms and defining many of them with great precision and clarity. He limited the aspects of rhetorical miracles to a number of facets, including brevity, simile and metaphor, among others. His views on these facets paved the way for the development of rhetorical studies in later eras and enriched rhetorical terminology, through his clear influence on many rhetoricians who came after him, such as al-Baqalani, Abd al-Qaher al-Jurjani and others, although there is another group of rhetoricians who disagreed with him on many issues in whole or in part, led by Ibn Sinan al-Khafaji, which also contributed to enriching the debate in the rhetorical field.

Keywords: Al-Rummani. Scholars of rhetoric. Rhetorical terms. Rhetorical studies. Miracle of the Qur'an

المقدمة:

تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتيوا بمثله، ثم تحداهم أن يأتيوا بعشر سور، ثم تحداهم بأن يأتيوا بسورة واحدة، ولكنهم عجزوا عن كل ذلك. من هنا انبرت طائفة من العلماء للبحث في جوانب إعجاز القرآن البلاغية والبيانية. وقد تعرض هؤلاء العلماء إلى وجوه إعجاز القرآن من خلال كتبهم المختلفة بهدف بيان مواطن الإعجاز في مضمون القرآن ومحتواه، والبحث عن الأمور الدالة على أنه من عند الله تعالى، وذلك في ظل الصراع الفكري الهائل الذي كان دائرا بينهم وبين الطاعنين في القرآن وفي بلاغته، ويصف البقلاني أجواء هذا الصراع بقوله: "فصار [أي القرآن] عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره"¹. ويضيف في موضع آخر مبينا ما يجب القيام به "ومن أهم ما يجب على أهل الدين كشفه، وأولى ما يلزم بحثه؛ ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما، وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهانا، ولمعجزته ثبوتا وحجة"²، فقضية الإعجاز القرآني إذا "تكاد تكون الموجه الأكبر لبلاغتنا العربية في أطوارها المختلفة: نشأة ونمو وازدهار"³.

ولعل أول رسالة تناولت إعجاز القرآن وصلتنا من أحد متكلمي المعتزلة هي رسالة "النكت في إعجاز القرآن" للرماني، ثم جاء بعده الخطابي وهو يعد من علماء أهل السنة، ورسالته تسمى "بيان إعجاز القرآن"، ثم تبعه الباقلائي صاحب رسالة "إعجاز القرآن"، وهذا ما أشار إليه صاحب كتاب البرهان بقوله: "وقد اعتني بذلك الأئمة [يقصد معرفة إعجاز القرآن] وأفرده بالتصنيف، منهم القاضي أبو بكر بن الباقلاني[...]" وكتاب الخطابي والرماني"⁴، لتتوالى بعد ذلك الدراسات القرآنية التي بلغت أوجها مع نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

ومن هنا يظهر الدور الفعال الذي قام به علماء الإعجاز في الدراسات القرآنية خاصة، وفي الدرس البلاغي عامة، كما يظهر أيضا الأثر الكبير للقرآن في تطور علوم البلاغة، إذ من أساليبه الفريدة استنبط علماء اللغة والبلاغة قواعدهم، وهذا ما تؤكد وفرة الاقتباسات منه في الدرس البلاغي .

¹ الباقلاني، أبو بكر بن محمد، عجاز القرآن، ت: عماد الدين أحمد حيدر، ط4، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ص27.

² المرجع نفسه، ص25-26.

³ عبد العزيز عبد المعطي عرفة (1985): قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، ط1، بيروت: عالم الكتب، ص5.

⁴ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (2006): البرهان في علوم القرآن، ت: أبو الفضل الديماطي، القاهرة: دار الحديث، ص383.

بيد أن هذا العمل سيقنصر على الرماني ورسالته: النكت في إعجاز القرآن في محاولة لبيان مساهمتها في تطوير الدرس البلاغي العربي، وذلك من من خلال رصد الإضافات التي قدمها للبلاغة مقارنة بمن سبقه، وكيف انعكست أرواه البلاغية في الدراسات اللغوية والبلاغية اللاحقة، وأيضاً الوقوف على التحولات التي عرفت بها بعض المصطلحات البلاغية إن على مستوى الدلالة أو مجالات التوظيف.

أما المنهج المعتمد في هذه الدراسة فهو المنهج التاريخي التحليلي، وذلك عبر تتبع المصطلحات البلاغية التي تناولها الرماني في كتابه وإبراز دلالتها عنده في سياق بيان إعجاز القرآن، ثم دراسة كيفية تأثيره فيمن جاء بعده من البلاغيين؛ سواء أولئك الذين ساروا على نهجه، أم الذين خالفوه الرأي، وانعكاس كل ذلك على المصطلحات البلاغية.

وتسعى هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف:

- إبراز مكانة الرماني في تاريخ الفكر البلاغي العربي.
- رصد التأثير المتبادل بين الرماني ومن سبقه من العلماء مثل الجاحظ.
- بيان مدى تأثيره في تطور علم البلاغة عامة وتأثيره في الدراسات الإعجازية خاصة.
- الإسهام في رصد كيفية تطور المصطلحات البلاغية
- تسليط الضوء على دور الرماني في التفسير بين البلاغة الانطباعية والبلاغة التقعيدية

ترجمة المؤلف:

هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (296هـ - 384هـ/908م - 994م) كان نحويًا ومفسرًا وناقدًا وبلاغيًا بارزًا في العصر العباسي، وأحد أعلام المعتزلة. اشتهر بدراساته في الإعجاز القرآني والبلاغة، حيث تأثر بالمذهب العقلي المعتزلي في تحليله اللغوي، مما جعله يركز على البعد العقلي والمنطقي في تفسير النصوص¹. وقد كتب رسالة النكت في إعجاز القرآن جواباً على سؤال لشخص طلب إليه تفسير تلك النكت في إجمال وبدون تطويل، ويظهر ذلك في مقدمة الكتاب الذي يقول فيه: " سألت - وفقك الله - عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون تطويل بالحجاج وأنا أجتهد في بلوغ محبتك والله الموفق للصواب بمنه ورحمته. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه².

¹ الزركلي، خير الدين (1980) الأعلام، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، ج4، ص 302.

² الرماني أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، ت: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغول سلام، ط3، مصر، دار المعارف، ص75.

وجوه الإعجاز عند الرماني:

اعتمد علماء الإعجاز في دراستهم لقضية الإعجاز عددا من الوجوه، وقد حصرها الرماني في سبعة وجوه هي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، التحدي للكافة، الصرفة*، البلاغة، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، نقض العادة، قيامه بكل معجزة¹. وقد انتقل الرماني للحديث عن الجانب البلاغي وذلك لأهمية هذا الوجه عنده، أما الوجوه الثلاثة قبلها والوجوه الثلاثة بعدها فقد أرجأ الحديث عنها إلى آخر الرسالة، "ولعله يريد بذلك أن يؤكد على الناحية البلاغية في تقرير إعجاز القرآن، وأنها الوجه المقدم عنده، بدليل أنه عمد إلى تفصيل القول فيها.. ولو لم يكن هذا غرضه لبدأ بالأوجه التي قررها لإعجاز القرآن بحسب الترتيب الذي ذكره"²، كما أن هذا الوجه، أكثر الوجوه التي ذهب إليه أغلب علماء النظر³.

مفهوم البلاغة:

يعرّف الرماني البلاغة بقوله: "وليس البلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلما أحدهما بليغ والآخر عيي، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"⁴. وفي هذا التعريف إشارة واضحة إلى الربط بين جمال التعبير وعظيم التأثير، معتبرا أن الكلام البليغ هو الذي يلامس مشاعر المتلقي ويحدث تغييرا في نفسه، وذلك بواسطة ألفاظ متقنة الإحكام تحمل معان عميقة. ويعد هذا التعريف تطورا مهما في مفهوم البلاغة حيث جمع بين الجانب اللغوي والجانب النفسي في آن واحد، فضلا عن أن مفهوم البلاغة أخذ تحديدا واضحا، فلم تعد مجرد أوصاف كما نجد مثلا عند الجاحظ الذي حشد مجموعة من الأوصاف للبلاغة دون تحديد لها⁵، وقد تنبه لهذا الأمر ابن سنان الخفاجي في كتاب سر الفصاحة حيث رأى أن القدامى لم يحدوا

* أول من قال بالصرفة إبراهيم بن يسار النظام وهو معتزلي، وهو الرأي الشائع، وقد أخذ بقوله بعض المعتزلة ومنهم الرماني، ومعناها أن معجزة القرآن تتمثل في كون أن الله صرف الناس عن معارضته، وهو قول مردود، لأنه لا يجعل القرآن معجزة في نفسه، وإنما يكون المنع أو الصرف هو المعجز. ولمزيد من التفصيل يرجع إلى ما قاله الزركشي في كتابه البرهان.

¹ المرجع نفسه، ص75.

² عمار، أحمد محمد سيد (1998): نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، ط1، دمشق: دار الفكر، ص78.

³ البرهان، ص388.

⁴ النكت في إعجاز القرآن، ص76.

⁵ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، ج1/ 88.

البلاغة، وإنما اكتفوا برصد صفاتها، وهذا عبر عنه بقوله: "وقد حد الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة".¹

وقد بقي تعريف الرماني متداولاً في كتب اللاحقين، يضيفون عليه ولكنهم حافظوا على جوهره، فهذا أبو هلال العسكري يعرف البلاغة في مستهل الفصل الثاني من كتابه بأنها "كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن".² أما ابن رشيق القيرواني فقد سلك مسلك الجاحظ حيث أورد طائفة من الأقوال حول البلاغة بما فيها ما أقوال الجاحظ والرماني ثم ختمها بقوله: "ومدار هذا الباب كله على أن البلاغة وضع الكلام موضعه من طول أو إيجاز مع حسن العبارة".³ في حين عرفها السكاكي بقوله: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها".⁴ فهو بهذا التعريف يؤكد ما أشار إليه الرماني من أن البلاغة لا تقف عند الإفهام، بل لابد من مراعاة الخصائص البلاغية للتراكيب والأساليب البيانية مثل التشبيه والمجاز والكناية حتى يصير الكلام في مستوى رفيع من التعبير. كذلك أشار السكاكي إلى أن للبلاغة طرفين: طرف أعلى وهو مرتبة البلاغة الرفيعة التي في قمة الإبداع. وطرف أسفل، وهو الحد الأدنى للبلاغة. وبين هذين الطرفين هناك مراتب متفاوتة من البلاغة، وهذا نفس ما ذهب إليه الرماني الذي قسم البلاغة إلى ثلاث طبقات: عليا، وسطى، ودنيا. والعليا هي بلاغة القرآن، أما الوسطى والدنيا فهي بلاغة البلغاء من الناس حسب تفاوتهم في البلاغة

أما الخطيب القزويني فقد ذهب في مقدّمة الإيضاح إلى أن بلاغة الكلام هي: "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته".⁵ وهذا التعريف يعد امتداداً وتطويراً لأفكار السكاكي، حيث ركز القزويني على عنصرين: الأول هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أي التناسب بين الكلام وحال المخاطب والموقف، الثاني هو فصاحة الكلام، والفصاحة عنده هي الخلوص من تنافر الحروف، والغرابية، ومخالفة القياس. هذا بالنسبة للفظ المفرد، أما بالنسبة للكلام ففصاحته تتمثل في خلوه من

¹ ابن سنان الخفاجي (1952): سر الفصاحة، علق عليه: عبد المتعال الصعيدي، القاهرة، مطبعة صبيح، ص 60
² العسكري، أبو هلال (1982): كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، ت: علي محمد البجاوي، بيروت: المكتبة العصرية، ص10.

³ ابن رشيق القيرواني (2001): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: عبد الحميد هنداي، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، ج1/218.

⁴ السكاكي، أبو يعقوب يوسف (2011): مفتاح العلوم، ت: عبد الحميد هنداي، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، ص526.

⁵ الخطيب القزويني (2012): الإيضاح في علوم البلاغة، ت: محمد عبد القادر الفاضلي، بيروت: المكتبة العصرية، ص16.

ضعف التأليف، وتناثر الكلمات، والتعقيد،¹ كما أنه جعل للبلاغة طرفين: أعلى وأسفل، سيرا على نهج من سبقوه.

ويقسم الرماني بعد ذلك البلاغة إلى عشرة أقسام هي: الإيجاز، التشبيه، الإستعارة، التلاؤم، الفواصل التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة، حسن البيان، وهي قسمة تنتمي إلى أبواب مختلفة، فمنها ما يدخل في باب الصور البيانية، ومنها ما يدخل في النظم، ومنها ما يدخل في المعنى، ومنها ما يتصل بالبدیع. ثم يفسر كل قسم منها فيعرف الموضوع، ثم يقسمه إلى نواحيه، ويستشهد لكل بالآيات القرآنية، ويسوق أحيانا بعض الأبيات الشعرية أو كلام منقول عن العرب قصد القارنة والوازنة. وقد جاء كلامه على هذه الأقسام متفاوتا إذ شغلت الأمثلة والشواهد حيزا كبيرا من الكلام، أما التعريفات البلاغية فكانت غاية في الإيجاز.

أولا: الإيجاز:

وهو أول قسم وقف عليه، وعرفه بأنه "تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى"²، ثم عاد في آخر هذا الباب وعرفه أيضا بأنه تهذيب الكلام بما يحسن به البيان، وأنه تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن، وأنه البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ، وأنه إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير"³. ويستفاد من هذه التعريفات التي يكمل بعضها بعضا، ويتقاطع بعضها مع بعض، أن تقليل الألفاظ عن المعاني لا يعد دائما إيجازا، وإنما الشرط أن يتم ذلك دون إخلال بالمعنى، حتى يكون الكلام مبينا، وإلا عد ذلك تقصيرا. ولا شك في أن الرماني قد تأثر بسلفه الجاحظ الذي كان يرى أن حسن الكلام في الإيجاز، وإن لم يسمه كذلك، حيث يقول: "وأحسن الكلام، ما كان قليلا، يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه"⁴، لكنه يضيف إلى هذا البعد البلاغي بعدا نفسيا بقوله: "فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، صحيح الطبع عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، ومنزها عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة"⁵.

ويبدو أن الرماني أول من ميز بين نوعي الإيجاز: إيجاز الحذف وإيجاز القصر؛ فأما إيجاز الحذف فعرفه بأنه "إسقاط كلمة، للاجتزاء عندها بدلالة غيرها من الحال، أو فحوى الكلام."⁶ وذكر له أمثلة كثيرة من القرآن الكريم يذكر منها، قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]، فكأنه

¹ المرجع نفسه، ص 10-11.

² النكت في إعجاز القرآن، ص 77.

³ المصدر السابق، ص 80.

⁴ البيان والتبيين، ج 1/83.

⁵ المرجع نفسه، ج 1/83.

⁶ النكت في إعجاز القرآن، ص: 76.

قيل واسأل أهل القرية. ومنه حذف أجوبة، كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: 73] فكأنه قيل: حصلوا على النعيم المقيم، الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير¹، فالحذف في الآيتين أبلغ من الذكر، "لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان"².

وأما إيجاز القصر فعرفه بأنه "بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف"³، ووصفه بأنه أغمض من إيجاز الحذف⁴. وسبب الغموض فيه راجع للحاجة إلى معرفة المواضع التي يصلح فيها والتي لا يصلح فيها كما وضح ذلك الرمانى نفسه، وهذا مما تنبه له من جاء بعده من البلاغيين، حتى إن ابن الأثير اعتبر أن التنبيه له عسير "لأنه يحتاج إلى فضل تأمل، وطول فكرة؛ لخفاء ما يستدل عليه"⁵.

وقد عمق دلالاته بتلك المقارنة التي أجراها بين قول العرب [القتل أنفى للقتل] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ [البقرة: 179]، حيث انتهى إلى أن إيجاز الآية أبلغ من وجوه أربعة "أنه أكثر في الفائدة وأوجز في العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة وأحسن تأليفا بالحروف المتلازمة"⁶.

وأبرز الرمانى أثناء حديثه عن الإيجاز الفرق بين مصطلحين آخرين: هما الإطناب والتطويل؛ ففي حين امتدح الإطناب وعده ضمن الإيجاز لأنه يعني تفصيل المعنى وما يتعلق به وفقا للمقام، ذم التطويل ولم يعتبره من البلاغة، لأن فيه تكلفا في موضع يغني فيه القليل عن الكثير. وقد أفاد الخطابي من هذا التعليق ونقله بنصه تقريبا⁷، وإن قدم له بما يزيده وضوحا.

¹ المرجع نفسه، ص 76 و 77.

² المرجع نفسه، ص 77.

³ النكت في إعجاز القرآن، ص 76.

⁴ المرجع نفسه، ص 77.

⁵ ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (1990): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ج 2، ص 74.

⁶ النكت في إعجاز القرآن، ص 77.

⁷ ينظر الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان أعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل، ت: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، ط 3، مصر، دار المعارف، ص 52.

وقد حذا حذوه وسار على نهجه أبو هلال العسكري، فبعدما أود طائفة من الأقوال حول الإيجاز وعلاقته بالبلاغة، انتهى إلى تقسيمه إلى قصر وحذف¹، لكنه أدخل المساواة ضمن هذا الباب²، وهو ما لم يقل به الرماني.

ومن البلاغيين أيضا الذين ساروا على نهج الرماني وتأثروا به، ابن سنان الذي نقل عنه تعريفه للإيجاز وأقسامه، لكنه خالفه في التعريف بالرغم من ذلك، بحيث جعل حد الإيجاز هو "إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ"³، لكنه في المقابل يتفق معه في التطويل والإطناب. وفي هذا الصدد يقول: "وهذا المذهب من أبي الحسن موافق لما اخترناه"⁴.

وفي كتاب العمدة تناول ابن رشيق أيضا الإيجاز كما جاء عند الرماني، وقال بأنه على ضربين: ما طابق لفظه معناه، لا يزيد عنه ولا ينقص، والثاني ما فيه حذف للاستغناء عنه⁵، ويضيف "فأما الضرب الأول مما ذكر أبو الحسن فهم يسمونه المساواة"⁶ والحقيقة غير ما ذكر صاحب كتاب العمدة؛ لأن الرماني لم يتحدث عن المساواة ولم يجعلها أحد ضربي الإيجاز، وإنما تحدث عن إيجاز القصر وحده؛ تقليل الألفاظ وتكثير المعنى، ويضيف ابن رشيق أن الضرب الثاني الذي فيه حذف سمي الاكتفاء⁷. ومصطلح الاكتفاء من المصطلحات غير الشائعة في كتب البلاغيين لكنه يعبر عن مفهوم بلاغي مرتبط بالحذف والإيجاز. وممن ورد عنده لفظ الاكتفاء نذكر ابن الأثير، وهو عندهم أحد أضرب الحذف⁸.

أما عن السكاكي فيرى أن الإيجاز والإطناب نسبيان، وأن المعول في تحديدهما هو متوسط ما تعورف عليه في تأدية المعاني، وهو ما اصطلح عليه بمتعارف الأوساط⁹، وهو المعيار الذي اعتمد عليه لتعريف الإيجاز، وذلك بقوله: "الإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط"¹⁰ خلافا للإطناب الذي يكون "أداؤه بأكثر من عباراتهم"¹¹. ويعقب الخطيب القزويني

¹ كتاب الصناعتين، ص 175.

² المرجع نفسه، ص 179.

³ سر الفصاحة، ص 248.

⁴ المرجع نفسه، ص 247.

⁵ العمدة، ج 1/219.

⁶ المرجع نفسه، ج 1، ص 219.

⁷ العمدة، ج 1، ص 219.

⁸ المثل السائر، ج 2، ص 79.

⁹ مفتاح العلوم، ص 387.

¹⁰ المرجع نفسه، ص 388.

¹¹ المرجع نفسه، ص 388.

على التعريف بالقول: "والأقرب أن يقال: المقبول من طرق التعبير عن المعنى"¹، لأنه اعتبر أن البناء على متعارف الأوساط رد إلى جهالة²، أي احتكام إلى قياس مجهول أو غير محدد، وقسم هو الآخر الإيجاز إلى قسمين: إيجاز قصر، وإيجاز حذف، ثم جعل الحذف على وجهين: أحدهما أن لا يقام شيء مقام المحذوف، والثاني أن يقام مقام المحذوف ما يدل عليه³، وفي كلا الحالين يبقى المحذوف مدلولاً عليه من خلال القرائن وسياق الكلام، وذلك مضمون ما أشار إليه الرماني في تعريفه لإيجاز الحذف.

وبالعودة إلى السكاكي فإنه لم يميز بين إيجاز الحذف وإيجاز القصر، يظهر ذلك من خلال الأمثلة التي استشهد بها في هذا الباب، حيث جمع فيها بين الضربين معا دون تمييز. ولكنه أدرج بعضها تحت مسمى الاختصار، وهو مصطلح قريب من مصطلح الاكتفاء الذي ورد عند ابن الأثير باعتباره أحد أوجه الحذف، وهو نوع من الإيجاز الذي لا يفهم المعنى إلا بتقدير المحذوف.

تبقى الإشارة إلى أن الرماني لم يقف طويلاً عند الإطناب، كما لم يقدم أمثلة له من القرآن أو غيره، بخلاف من جاء بعده من البلاغيين الذين خاضوا فيه كثيراً، وبينوا متى يكون محموداً ومتى يكون مذموماً، كما بينوا الأغراض البلاغية التي تسوغه، ومنها التوضيح، والتأكيد، والتفسير، والاحتراز وغيره.

ثانياً: التشبيه:

يؤكد الرماني على أن التشبيه مما يتفاضل فيه الشعراء والبلغاء، وعرفه بأنه: "العقد على أن أحد الشئيين يسد مسد الآخر في حس أو عقل"⁴، وهو في هذا الباب لم يكن متأثراً بأسلافه الذين تناولوا التشبيه مثل المبرد الذي تحدث عن أنواع من التشبيه كالمصيب، والعجيب، والغريب، والمفرط⁵. كذلك لم يعبأ بما ذكره ابن طباطبا عن ضروب التشبيه وأدواته، فلم يهتم الرماني بهذه النظرة أو تلك، وإنما سلك طريقاً جديدة خالف فيه السابقين، لعلها كانت هي الطريق الأساسية التي سار عليها العلماء من بعده، فتراهم يأخذون بأقواله في هذا الباب، وقد يضيفون إليها آراء غيره، وربما لا يضيفون كما هو الشأن عند أبي هلال الذي عرف التشبيه بأنه: "الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة تشبيه"⁶، ويكاد هذا التعريف يتطابق مع تعريف الرماني لولا تغيير الألفاظ، غير أنه جعل

¹ الإيضاح في علوم البلاغة، ص175.

² المرجع نفسه، ص175.

³ المرجع نفسه، ص188.

⁴ النكت في إعجاز القرآن، ص80.

⁵ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (2002) الكامل في اللغة والأدب، بيروت: مؤسسة المعرفة، ج2، ص33.

⁶ كتاب الصناعتين، ص238.

التشبيه على ثلاثة أوجه خلافا للرماني الذي قسمه إلى وجهين فقط: تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما¹. وتتمثل إضافة أبي هلال في تقسيم الوجه الأول إلى ما كان الاتفاق فيهما من جهة اللون، وإلى ما كان الاتفاق يعرف بدليل².

ويذهب الرماني إلى أن التشبيه يؤدي وظائف متعددة: منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة، ومنها ما يبرز المعنوي في صورة المحسوس، ومنها ما يجعل الغريب مألوفاً، ومنها ما يجعل الجهل معلوماً، ومنها ما يقوي الصفة التي تكون ضعيفة في المشبه.

وقد جعل الرماني وجه الشبه في خدمة التشبيه لأنه يكسب الطرفين بيانا، ويعمل على تخطيه من الغموض إلى الوضوح، كما سعى في كل شاهد من الشواهد إلى أن يضع أيدينا على وجه التشبيه، ويحلله تحليلاً واضحاً حتى يبين لنا الجهة الجامعة بين الطرفين. إذ التشبيه البليغ عند الرماني ليس كما استقر معناه لدى التأخرين؛ بأنه التشبيه الذي حذفت فيه أداة التشبيه، في حين إذا اقترن بها خرج من هذه الدائرة، بل التشبيه البليغ عنده هو: "إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف"³، وهو ما قرره أيضاً ابن رشيق، واعتبره من الحق الذي لا يدفع⁴. وقد انتفع بهذه التفصيلات في التشبيه كل من جاء بعده مثل أبي هلال الذي أخذ آراء الرماني في التشبيه بوجوه الأربعة، كما اعتمد نفس أمثله، كما انتفع به ابن أبي الأصبع وابن رشيق وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم. لكن عمل البلاغيين امتد إلى ما هو أبعد من أغراض التشبيه التي تطرق إليها الرماني، فتحدثوا عن أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه، وباعتبار الأداة، وباعتبار طرفيه.

ثالثاً: الاستعارة:

الاستعارة عند الرماني هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة⁵ وفرق بينها وبين التشبيه؛ بأن الكلمات فيه تظل لها معانيها الحقيقية بخلاف الكلمات في الاستعارة فإنها تدل على ما لم توضع له في اللغة⁶. كما حدد أركانها وهي: المستعار والمستعار له والمستعار منه. وتحدث عن الاستعارة الحسنة وهي "التي توجب بلاغة بيان لا تنوب منابه الحقيقة،

¹ النكت في إعجاز القرآن، ص 81.

² كتاب الصناعتين، ص 240.

³ النكت في إعجاز القرآن، ص 81.

⁴ العمدة، ج 1/ 252 - 253.

⁵ النكت في إعجاز القرآن، ص 85.

⁶ النكت في إعجاز القرآن، ص 85 - 86.

وذلك لو كان تقوم مقامه الحقيقة أولى به، ولم تَجُزْ الاستعارة، وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة، وهي أصلاً لدلالة على المعنى".¹ وهو بهذا ينص صراحة على أن أسلوب الاستعارة أقوى وأبلغ من أسلوب الحقيقة. وقد فصل في عناصرها تفصيلاً مدققاً متخذاً نماذج من القرآن ليوضح دقة التعبير القرآني وجماله، موازناً بينه وبين التعبير العادي، فمثلاً يورد قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، فيذكر أن حقيقة ﴿قَدِمْنَا﴾ في الآية، أي معناها: عمدنا، وأن قدمنا أبلغ من عمدنا؛ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه عاملهم من أجل إهمالهم لهم، كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرأهم على خلاف ما أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإهمال والمعنى الذي يجمعهما العدل لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل. والقدم أبلغ لما بينا.²

واستمر الرماني في حشد الأمثلة من القرآن الكريم إلى أن بلغت أربعة وأربعين شاهداً، مبيناً في كل شاهد المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي، والجامع بين المعنيين، ونكتة التعبير بالاستعارة دون الحقيقة، والسر البلاغي في الآية، والأثر النفسي الذي يتداعى إلى القلوب عند سماع التعبير بالألفاظ التي دخلتها الاستعارة.

فقد تجاوز الرماني النظرة التقليدية للاستعارة كمحسن لفظي، واعتبرها أداة فعالة لإظهار الإعجاز القرآني، فهو من الرواد القلائل الذين عالجوا الاستعارة بهذه الطريقة التي لم تكن مألوفة عند السابقين كالجاحظ، وابن قتيبة، وشعلب وابن المعتز الذين اعتبروا البلاغة زخرفاً لغوياً. ولا من المتأخرين كابن سنان الذي نقل تعريفه للاستعارة، وابن رشيق الذي اعتبرها من أبواب البديع ومن محاسن الكلام³، غير أن لفظ البديع الذي ورد في كلام ابن رشيق، ليس بالمعنى الذي استقر عند المتأخرين؛ بوصفه العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام سواء على مستوى اللفظ أم المعنى. وإنما البديع عنده رديف الاختراع ولذا قرنهما في باب واحد على أساس أن معناهما واحد في العربية، لكن عاد وفرق بينهما إذ "أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط. والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله"⁴، لكن نظريته للاستعارة بعيداً عن أغراضها البيانية جعلها مجرد زخف لغوي أو معنى مستظرف على حد وصفه. وقد اقتفى ابن رشيق آثار ابن المعتز في هذا الباب. على أن المتأخرين ومنهم السكاكي أدرجوا الاستعارة ضمن البيان الذي يعرف بأنه إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه. وهو نفس المسلك الذي سبق إليه الرماني في تناوله للاستعارة، الشيء الذي يثبت حجم التأثير الذي تركه

¹ المرجع نفسه، ص 86.

² المرجع نفسه، ص 86.

³ العمدة، ج 1/235.

⁴ العمدة، ج 1/230.

في البلاغيين من بعده. وقد قرن السكاكي الاستعارة بالتشبيه معتبرا أن الاستعارة هي: "أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر"¹، والتشبيه هو الآخر من أبواب علم البيان. وقسمها إلى تصريحية، ومكنية، وقسم التصريحية إلى تحقيقية وتخيلية، ثم قسم المكنية إلى أصلية وتبعية.

أما أكثر من انتفع بطريقة الرماني في الاستعارة فهو عبد القاهر الجرجاني، وظهر ذلك جليا في كتابه دلائل الإعجاز.

رابعاً: التلاؤم:

وعرف التلاؤم بوصفه نقيض التنافر²، وجعله على ثلاثة أوجه:

- التأليف المتنافر، وهو ما تنافرت حروفه حتى يعسر النطق بها.
- التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى، وعده الرماني حسنا.
- المتلائم في الطبقة العليا، وخص به القرآن كله، حتى أنه جعل الفرق "بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى"³.

وهذا الرأي يحيلنا على مذهب الجاحظ في التلاؤم، إذ يرى أن أجود الشعر ما كان متلاحم الأجزاء سهل المخارج، عكس للردىء وهو ما كان مستكرها، لا يقع بعض ألفاظه ملائما لبعض⁴، والظاهر أن الجاحظ يجمع في الكلام بين التلاؤم التركيبي الذي يتعلق بالألفاظ، والتلاؤم الصوتي المتعلق بسهولة المخارج، وهذا ما عبر عنه بقوله: "وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقه ملسا، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرها، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة متواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد"⁵.

وجدير بالذكر أن الرماني لم يتطرق للتلاؤم التركيبي القائم على مستوى الألفاظ، بل إن حديثه ظل مقصورا على التلاؤم الصوتي. هذا، وقد عرض لسبب التلاؤم حيث أرجعه إلى تعديل الحروف في التأليف، خلافا للتنافر الذي يكون سببه البعد الشديد بين الحروف، أو القرب الشديد بينها، وكلاهما صعب على اللسان⁶، ويبدو أن الرماني لم يكن مقتنعا بأن التلاؤم وحده دليل على إعجاز القرآن،

¹ مفتاح العلوم، ص 477.

² النكت في إعجاز القرآن، ص 94.

³ النكت في إعجاز القرآن، ص 95.

⁴ البيان والتبيين، ج 1، ص 66-67.

⁵ المرجع نفسه، ج 1، ص 67.

⁶ النكت في إعجاز القرآن، ص 96.

ولذا نراه يستدرك الأمر بقوله: " فإذا انضاف إلى ذلك، حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام"¹. فبين أن الإعجاز لا يتحقق إلا بإضافة عناصر أخرى وهي حسن البيان وصحة البرهان.

أما الفائدة من التلاؤم فحصرها في حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة².

ولعل أبا هلال العسكري أقرب إلى الجاحظ منه إلى الرماني في مسألة التلاؤم، فقد تناوله هو أيضا من جهة التركيب، ومن جهة الحروف، وبيان ذلك قوله: " وتخبر الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التثام الكلام؛ وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حرووف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه"³. وكذلك فعل الخطيب القزويني الذي تناول التلاؤم ضمن حديثه عن الفصاحة والبلاغة، وقد اعتبره عنصرا رئيسيا في فصاحة المفرد، وفصاحة الكلام، ويعني بالمفرد خلوصه من تنافر الحروف، في حين يعني بالكلام خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات⁴. وهذا يعني أن تأثير الرماني كان ضعيفا في هذا الباب.

خامسا: الفواصل:

يعرفها الرماني بقوله حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، وفرق بين فواصل القرآن والأسجاع، معتبرا أن الفواصل بلاغة والأسجاع عيب، والسبب في ذلك -حسب الرماني- أن الفواصل تابعة للمعاني وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها،⁵ وقصر استشهاده عليه بسجع الكهان إمعانا في تقرير عيبه، إلا أنه رغم الحجج التي قدمها الرماني لنفي السجع من القرآن فإنها لم تقنع الكثير من البلاغين مثل أبي هلال العسكري الذي ذهب إلى أن " جميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الحلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق"⁶، وبالرغم من أنه يسمي ما جاء في القرآن سجعاً، إلا أنه يبدي بعض التحفظ الذي يتجلى في قوله إن سجع القرآن مخالف لسجع البشر، وكذلك فعل عبد القاهر الجرجاني الذي اعتبره سجعاً، غير أنه جعل مناط الحسن فيه هو أن يكون المعنى هو الذي يطلبه ويستدعيه،

¹ المرجع نفسه، ص 96.

² المرجع نفسه، ص 96.

³ كتاب الصناعتين، ص 141.

⁴ الإيضاح في علوم البلاغة، ص 10.

⁵ النكت في إعجاز القرآن، ص 97.

⁶ كتاب الصناعتين، ص 260.

وحتى لاتجد له بديلا¹، وإذا كان الجرجاني يعتبر هذه الاخيرة علامة على حسن السجع، فإن الرماني يعتبرها خاصية أساسية تميز الفواصل عن السجع.

ويعد ابن سنان الخفاجي أبرز المعارضين للرماني في قضية السجع، وقد عرض في كتابه العديد من الردود على الرماني بهذا الخصوص، حيث يقول: "وأما قول الرماني أن السجع عيب، والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط. لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعا للمعنى، وكأنه غير مقصود، فذلك بلاغة والفواصل مثله. وإن كان يريد بالسجع، ما تقع المعاني تابعة لها وهو مقصود متكلف، فذلك عيب والفواصل مثله"²، ولم يكتف ابن سنان بهذا الرد، بل تعداه إلى التعقيب على قول الرماني بأن الفواصل بلاغة والسجع عيب، حيث اعتبر هذا الكلام غير صحيح، والصحيح - من وجهة نظره - هو أن السجع حروف متماثلة، أما الفواصل فإما أن تكون سجعا إذا تماثلت حروفه في المقاطع، وإما أن لا تكون سجعا إذا لم تتماثل حروفه في المقاطع³، وهذه لفظة ذكية من ابن سنان، حيث أخرج الفواصل من دائرة السجع، وربطه بالحروف، فالحروف المتماثلة وحدها هي التي تحدد السجع، أما الفواصل فهي مكان وقوع الحروف. أما عن عدم تحفظه على تسمية هذه الظاهرة البلاغية بالسجع فمرده إلى أنه لا يرى فرقا " بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعا، وبين مشاركة جميعه في كونه عرضا وصوتا وحروفا وكلاما عربيا ومؤلفا"⁴.

وفي المقابل فقد انتصر البقلاني لرأي أبي الحسن الرماني، ونقل تعريفه للسجع، بل إنه عقد فصلا لنفي السجع من القرآن، أورد فيه عددا من الحجج فيها من التمثل ما لا يخفى على كل ذي لب، ومنها: أنه لو جاز أن يقولوا هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا إنه شعر معجز، ومنها ما ذكره الرماني من أن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ، وليس كذلك في القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى⁵، وغيرها من الحجج التي جاءت في سياق رده على حجج القائلين بالسجع في القرآن.

ويرجع البعض السبب في نفي السجع من القرآن إلى " بروز هذا المقوم كقيمة فنية كبيرة في التراث الأدبي العربي القديم شعرا كان أم سجعا أم خطبا أم أمثالا، بالقياس إلى النص القرآني. فإذا ما نظر إلى البنية نظرة كمية شكلية -وكذلك كانت نظرة الباقلائي- بدا أوفر حظا في الأدبي منه

¹ الجرجاني، عبد القاهر (1991): أسرار البلاغة، ت: محمد محمود شاكر، ط1، القاهرة: مطبعة دار المديني، ص10

² سر الفصاحة، ص204.

³ المرجع نفسه، ص203.

⁴ المرجع نفسه، ص205.

⁵ إعجاز القرآن، ص84.

في النص الديني، وهذا مرجح لبلاغي الإعجاز¹. وبعبدا عن هذه الاعتبارات فإن نفيه السجع من القرآن مرده إلى رغبته في النأي بالقرآن عن التشبه بكلام الكهان، وتمييزه عن كلام البشر، ولذا يقول الباقلاني "كيف والسجع مما كان يألفه الكهان العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر"². فضلا عن كثرة شيوع استخدامه في القرن الرابع الهجري، والإفراط في تكلفه، والغلو فيه، وهو ما ولد ردود فعل سلبية تجاهه.

والفواصل عند الرماني على وجهين: إحداها على الحروف المتجانسة والأخرى على الحروف المتقاربة.

فالحروف المتجانسة كقوله تعالى: ﴿طه (1) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه: 1-2]. أما الحروف المتقاربة فكالميم من النون، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (3) مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ (4)﴾ [الفاتحة: 3-4]. وكالدال مع الباء نحو: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ثم قال ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 1-2]، ويرى أن أحسن الفواصل ما كان في الحروف المتقاربة، خلافا لأبي هلال الذي اعتبر هذا الوجه دون الوجوه الأخرى، أما ابن سنان فله موقف مخالف تماما؛ لأنه لا يدخل هذا النوع في باب السجع، فالسجع عنده هو ما كانت حروفه متماثلة.

وقد عد المتأخرون السجع من المحسنات البديعية التي يعمد إليها المتكلم حين يتوخى مزيدا من العناية بالصياغة اللفظية، وجمال الأداء، وحده "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد"³، واعتبروا ما جاء في القرآن داخلا ضمن هذا الباب، وهذا انتصار لابن سنان ومن هذا حذوه. ويبقى التكلف في السجع أمرا مذموما باتفاق البلاغيين جميعا.

سادسا: التجانس:

وعرفه بقوله: "هو بيان أنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة"⁴. وقسمه إلى قسمين: مزوجة ومناسبة. فمن أمثلة المزوجة قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] ويشرحه بقوله: "جازوه بما يستحق على طريق العدل، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزوجة الكلام لحسن البيان"⁵ ومنه: ﴿وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54]. وكما أشار إلى مسألة استعارة اللفظ في الاعتداء

¹ العمري، محمد (1991): الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، ط1، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص: 75-76.

² إعجاز القرآن، ص84.

³ الإيضاح في علوم البلاغة، ص384.

⁴ النكت في إعجاز القرآن، ص99.

⁵ المرجع نفسه، ص99.

للدلالة على المساواة، يعود في هذا المثال الثاني أيضا للحديث عن استعارة اسم المكر للجزاء على المكر لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم.

ومن المناسبة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: 127] ويوضح ذلك بقوله: "فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فذهبوا عن الذكر، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير"¹.

والناظر في الأمثلة التي أورد الرمانى في هذا الباب يصل إلى تقرير حقيقة هي أن تعريف الرمانى للتجانس لا يحيط بمراده، لأن مدار الأمر لا يتعلق بالإشتراك في الأصل اللغوي فقط، بل يتعداه إلى الاختلاف على مستوى المعنى من داخل النص، ولا سيما النص القرآني الذي تستدعي ألفاظه - فضلا عن معانيها المعجمية - دلالات أخرى تستحضر عظمة الله وما يجوز في حقه من الصفات كالعدل والقدرة المطلقة ونحو ذلك، وما لا يجوز، كالاستهزاء والخداع والمكر وغيره.

والتجانس غير الجنس أو التجنيس كما قد يتوهم البعض، لأن الاختلاف بين الألفاظ حاصل في الجنس ابتداء، وليس عن طريق التأويل كما هو الحال في التجانس، فلفظ الاستهزاء ليس له إلا معنى واحد هو الاستخفاف والسخرية، في المقابل فإن لفظا مثل الساعة تحتل معنى يوم القيامة، ومعنى المدة الزمنية المعلومة. كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: 55].

وقد سمى البلاغيون بعده التجانس بالمشاكلة، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صفة². وهذا تماما ما عناه الرمانى بالتجانس. ففي حديثه عن المزوجة كرر لفظ "استعير" والاستعارة كما يبدو من خلال كلامه، يراد بها إحلال كلمة مكان أخرى؛ فالاعتداء الثاني يقصد به رد العدوان، والمكر الثاني يراد به الوقوع في عاقبة أمرهم. ويرجع الرمانى هذا الاختيار اللغوي إلى حسن البيان.

أما المزوجة التي كانت عند الرمانى إحدى وجهي التجانس، فقد تناولها البلاغيون بوصفها ظاهرة بلاغية مستقلة، وحدّها، أن يزواج المتكلم بين معنيين في الشرط والجزء³، أي يجعل معنيين متشابهين واقعين في الشرط والجزاء في أن يرتب على كل منهما معنى رتب على الآخر. وهو قريب من تعريف الرمانى الذي يرى أن المزوجة تقع في الجزء⁴. كقول البحرى:

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِي فَلَجَّ بِي الْهَوَى *** أَصَاخَتْ إِلَى الْوَأَشِي فَلَجَّ بِهَا الْهَجَزُ

¹ النكت في إعجاز القرآن، ص100.

² مفتاح العلوم، ص533.

³ المرجع نفسه، ص534.

⁴ النكت في إعجاز القرآن، ص99.

حيث زواج الشاعر بين نهى الناهي، وإصاقتها إلى الواشي، الواقعين في الشرط والجزاء، في أن رتب عليهما لجاج الشيء.

سابعا: التصريف:

وهو واحد من وجوه الإعجاز عند الرماني، ويكمن إعجاز القرآن في هذا الباب، في قدرته على "تصريف المعنى في المعاني المختلفة"¹، ويعني بذلك قدرة المتكلم على توجيه المعنى بحيث يتناسب مع سياقات مختلفة دون أن تفقد الكلمة صلتها بالجذر الأصلي، أو بمعنى أوضح هو إنتاج دلالات متعددة استجابة لمقتضيات السياق. والتصريف عنده على ضربين:

تصريف لفظ، وتصريف معنى. أما تصريف اللفظ فهو: "تصريفه في الدلالات المختلفة، وهي عقدها به على جهة التعاقب"²، وأراد بعقدها به على جهة التعاقب؛ الربط بين المعاني المختلفة بحيث تكون مترابطة، مما يجعل انتقالها من معنى إلى آخر متسقا، وذلك كتصريف (الملك) في معاني الصفات "قصر في معنى مالك وملك وذو الملكوت والمليك وفي معنى التملك والتملك والإملاك والتملك والمملوك"³، وفائدة هذا الضرب من التصريف في دلالاته على إعجاز القرآن ما فيه من "بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه"⁴.

تصريف المعنى، وجاء في معرض حديثه عن قصص الأنبياء عليهم السلام، وقد بلغ القرآن الكريم فيه مرتبة الإعجاز حسب الرماني، لأن فيه تكريرا للمعنى الواحد، بعبارات مختلفة دون إخلال بالمعنى، فقصة موسى في القرآن ذكرت في سورة الأعراف، وطه، والشعراء، والقصاص، والنمل، وغيرها من السور. ونجد ما يعاد ذكره من هذه القصة في كل السور غير مختلف ولا متفاوت، بل هو في نهاية البلاغة وغاية البراعة. ولذلك عد الرماني هذا النوع من التصريف، وجها من وجوه الإعجاز البلاغي، لأن تكرير القصة الواحدة بعبارات مختلفة، يدل على اقتدار المكرر لها على التصرف في أنواع البلاغة، من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ويدل أيضا على معنى تلك القصة دلالة بعد دلالة، لتمكين العبرة والموعظة والحث على الاعتبار.⁵

مما لا خلاف فيه أن الرماني قدم إسهاماته في التصريف في سياق البلاغة والإعجاز، لكن البلاغيين اللاحقين لم يعطوا "التصريف" اهتماما كبيرا، واعتبروه جزءا من علم النحو، وظيفته التعرف على بنية الكلمة التي ليست إعرابا ولا بناء، ولا سيما تصريف اللفظ، وقد تناوله عدد من اللغويين

¹ النكت في إعجاز القرآن، ص101.

² المرجع نفسه، ص101.

³ المرجع نفسه، ص101.

⁴ المرجع نفسه، ص101.

⁵ المرجع نفسه، ص102.

تحت باب الاشتقاق، ومنهم ابن جني الذي سماه الاشتقاق الصغير أو الأصغر، وفي هذا يقول: "فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم؛ كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغته ومبانيه"¹، ومنهم السكاكي الذي تناوله في كتابه المفتاح ضمن باب التصريف، وبين الفرق بينه وبين الاشتقاق الأكبر، كما فعل ابن جني من قبله، ومنهم من تناوله ضمن جناس الاشتقاق.

أما بالنسبة لتصريف المعنى عند الرماني فقد تناوله البعض تحت مسمى التكرار، وخاصة تكرار المعنى، ومن هؤلاء ابن رشيق، غير أنه لم يقدم تعريفاً له، بل ولجه مباشرة عن طريق تقديم أمثلة له، مشيراً إلى أن له مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها².

لكن التصريف ظل حاضراً بشكل غير مباشر في دراسات البلاغيين، إذ أنهم استفادوا من مخرجاته في دراستهم للأسلوب القرآني، كما فعل الجرجاني في نظرية النظم التي تعتمد على توافق الكلمة مع السياق.

ثامناً: التضمين:

التضمين عند الرماني، ليس هو تضمين الكلام كلاماً آخر، قصد الاستعانة به على تأكيد المعنى، وإنما التضمين عنده هو: "حصول معنى من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه"³، بمعنى أن تتضمن الكلمة الواحدة معنى كلمتين أو أكثر، أو أن يحمل اللفظ الواحد معنى إضافياً يفهم من السياق دون التصريح به، والتضمين عند الرماني على وجهين: ما يدل عليه الكلام دلالة إخبار؛ لأنه يحمله في ظاهر لفظه كدلالة كلمة مكسور على كاسر. الوجه الثاني: ما يدل عليه الكلام دلالة قياس؛ كدلالة البسمة على تعظيم الله والاعتراف بنعمته وأنه ملجأ الخائف وحسن كل خائف⁴.

وإذا كان التضمين عند الرماني هو الإخبار عن المعاني الكثيرة، بالألفاظ القليلة فهو التعريف نفسه الذي ارتضاه للإيجاز، ويؤكد هذا قوله: "والتضمين كله إيجاز استغني به عن التفصيل"⁵.

لكن البلاغيين بعد الرماني قصرُوا التضمين على الشعر، وله معنيان، الأول: هو تعلق البيت بما قبله من حيث تمام الفكرة وهو من عيوب الشعر عندهم، أو كما قال أبو هلال العسكري "التضمين

¹ ابن جني، أبو الفتح عثمان (2001): الخصائص، ت: عبد الحميد هندراوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، المجلد 1، ص390.

² العمدة، ج2/92.

³ النكت في إعجاز القرآن، ص102.

⁴ المرجع نفسه، ص103.

⁵ المرجع نفسه، ص103.

أن يكون الفصل الأول مفتقرا إلى الفصل الثاني، والبيت الأول محتاجا إلى الأخير¹. الثاني: وهو أن يثبت الشاعر شيئا من شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء،² وغالبا ما يدرجونه تحت باب الاقتباس وما يتصل به إلى جانب الحل والعقد والتلميح. أما ما عناه الرماني بالتضمن فيدرجونه تحت باب الإيجاز.

تاسعا: المبالغة:

تجدر الإشارة إلى أن الرماني في دراسته للمبالغة قد درسها في صورها القرآنية ولم يدرسها بمعناها العام وعرفها بأنها "الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة"³، أي تجاوز المعنى العادي المؤلف بغرض إبرازه بشكل أقوى وأوضح، مما يتطلب إحداث تغيير في أصل اللغة. وهي عنده على وجوه منها: المبالغة عن طريق البنية كصيغ فعلان وفعل وفعل وغيرها، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ طه/82 فصفة غفار معدولة عن غافر للمبالغة. ومنها مبالغة بالتعميم مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62]. ومنها مبالغة بالتعبير عن شيء يصاحبه تعظيما مثل ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22] ومنها مبالغة إخراج الممكن إلى الممتنع نحو ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الأعراف/40 ومنها مبالغة إخراج الكلام مخرج الشك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ/24 ومنها مبالغة بحذف جواب الشرط مثل ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ الأنعام/27.

وقد سمي علماء البلاغة هذا الوجه بالإفراط ومنهم الجرجاني في كتابه الوساطة، يقول: " والإفراط مذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في الأوائل، والناس فيه مختلفون، بين مستحسن قابل، ومستقبح راد".⁴ وسماه الحاتمي في كتابه حلية المحاضرة الإغراق والغلو. أما الخطيب القزويني فتحدث في إيضاحه عن المبالغة المقبولة دون غيرها.

وللبلاغيين ثلاثة مذاهب في المبالغة:

1. أنها غير معدودة في محاسن الكلام، ولا من جملة فضائله، وحجتهم أن خير الكلام ما خرج مخرج الحق من غير إفراط ولا تفريط.
2. أنها من أجل المقاصد في الفصاحة وأعظمها في البلاغة، وحجتهم على ذلك أن خير الشعر

¹ كتاب الصناعتين، ص36.

² الإيضاح في علوم البلاغة، ص410.

³ النكت في إعجاز القرآن، 96.

⁴ الجرجاني، علي بن عبد العزيز (2006): الوساطة بين المتبني وخصومه، ت: محمد أو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، ص348.

أكذبه، وأن أفضل الكلام ما بولغ فيه.

3. أنها فن من فنون الكلام ومحاسنه، ومتى كانت جارية على جهة الغلو والإغراق فهي مضمومة .

وقد أجمل ابن رشيق هذه المذاهب عن المبالغة بقوله: "وهي صروب كثيرة، والناس فيها مختلفون: منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ويراهم الغاية القصوى في الجودة... ومنهم من يعيبها وينكرها ويراهم عيباً وهجنة في الكلام"¹ ويضيف "أما الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها"².

ولعل الفرق بين الرمانى ومن جاء بعده من البلاغيين أن حديثه عن المبالغة كان مقصوراً على القرآن كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وبذلك كانت كل وجوهها مستحسنة، هدفها إخراج المعنى في صورة من العظمة لزيادة التأثير في نفس السامع. بينما انفتح البلاغيون على الشعر، ومن هنا جاء حديثهم عن المبالغة المستقبحة والمستحسنة، ولاسيما أثناء حديثهم عن الاستعارة والتشبيه، حتى إن ابن طباطبا العلوي عقدا فصلاً في عياره للأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها. ويبدو من خلال تتبع أقول البلاغيين أن المبالغة في حد ذاتها ليست مستقبحة، وإنما المستقبحة هو الغلو والإغراق والإفراط فيها، وهذه هي الخلاصة التي انتهى إليها ابن رشيق وعبر عنها بقوله: "فأما الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها [...] ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة"³.

لقد تقدم الحديث عن أن الرمانى قسم المبالغة إلى قسمين كبيرين: الأول يتعلق ببنية الكلمة، والثاني مرتبط بطبيعة تركيب الكلام. فأما الأول فأصبح باباً من أبواب علم الصرف وهو صيغ المبالغة، وأما الثاني فتحول إلى علم المعاني وخاصة ما يعرف عند علماء البلاغة بأغراض الخبر التي تبحث في المعاني المستفادة من الكلام، ومن ذلك معنى التعظيم والتفخيم والتخويف والتهويل وغيره، وقد جمع الرمانى كل هذه المعاني تحت عنوان كبير هو المبالغة، وبالرغم مما عرفه هذا المصطلح من تحولات إلا أنه ظل ضمن دائرة الدرس البلاغي.

¹ العمدة، ص 67.

² المرجع نفسه، ص 69.

³ العمدة، ص 69.

عاشرا: حسن البيان:

وبه يختم الرماني بحثه في البلاغة وحده " الإحضار لما يظهر به تميز الشيء عن غيره في الإدراك" ¹، ويقصد بذلك، أن البيان هو توظيف الوسيلة المناسبة التي تعرب بها عن المعنى المراد حتى يتحقق الفهم أو ما عبر عنه بالإدراك، وقد سبقه الجاحظ إلى هذا التعريف بشيء من التفصيل. يقول: "مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع". ² ويقسم الرماني البيان إلى أربعة أقسام: كلام وحال وإشارة وعلامة، وهو قريب مما قاله الجاحظ الذي قسمه إلى لفظ وإشارة وعقد وحال. ³

ثم قسم الرماني الكلام إلى قسمين: مبين وهو الذي يفهم به المراد، وغير مبين وهو الذي لا يفهم به المراد، واستثنى من المبين ما قبح من الكلام، "فليس بحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبح من الكلام". ⁴ وهو شرط أخلاقي أكثر منه لغوي. وجعل أعلى مراتب البيان ما اكتملت فيه البلاغة من إحكام النظم، وسهولة اللفظ، والتأثير في السامع، وماسبة المقال للمقال. وقد ذهب مذهب الجاحظ في البيان.

وفي آخر هذا المبحث عاد الرماني لاستقصاء أغراض الخبر، وإن لم يسمها كذلك، وذلك أثناء حديثه عن حسن بيان القرآن. وقد جرد طائفة من الأغراض منها: التحذير، والوعد والوعيد، والتفريع، والترغيب، والتنفير وغيرها.

وبعد انتهائه من الحديث عن البلاغة، انتقل الرماني إلى الحديث عن بقية وجوه الإعجاز الستة المتبقية التي ذكرها في فاتحة الكتاب.

الخاتمة:

إن كلام الرماني المعتزلي كان خلاصة ما انتهى إليه أصحاب هذه الصناعة ممن سبقه أو عاصره، غير أنه أضاف إضافات جديدة للبلاغة تتمثل في تحديد بعض فنونها تحديدا نهائيا، وبيان أقسامها بوضوح، وهو جهد كبير في بناء النظرية البلاغية العربية، وقد أفاد منه الكثير من البلاغيين الذين نقلوا آراءه وأمثلته. ومنهم من تتبعها بعين النقد، فكان من نتائج ذلك أن أخذت الفنون والمصطلحات البلاغية تتطور وتتفرع بالرغم مما كان فيها من التداخل.

¹ النكت في أعجاز القرآن، ص106.

² البيان والتبيين، ج1/76.

³ المرجع نفسه، ج1/76.

⁴ النكت في إعجاز القرآن، ص106.

ويبقى الأهم هو أن هذا الاتجاه الذي يمثله الرماني والبقلائي قد أفرز ردود فعل قوية تجلت في كتاب "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي الذي عارض فيه موقف الرماني في قضية الفواصل والأسجاع، وهي واحدة من النتائج المهمة التي حققها الرماني في ميدان البلاغة.

أما الأثر الأكبر الذي أحدثه الرماني في الدرس البلاغي العربي فهو تأثيره الواضح في عبد القاهر الجرجاني؛ فقد استفاد هذا الأخير من تحليلات الرماني للإعجاز القرآني وطورها من خلال نظرية النظم التي تعد أبرز النظريات البلاغية.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (1990): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (2001) الخصائص، ت: عبد الحميد هندراوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن رشيق القيرواني (2001): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: عبد الحميد هندراوي، ط1، بيروت: المكتبة العصرية.
- ابن سنان الخفاجي (1952): سر الفصاحة، علق عليه: عبد المتعال الصعيدي، القاهرة: مطبعة صبيح.
- الباقلاني، أبو بكر بن محمد، عجاز القرآن، ت: عماد الدين أحمد حيدر، ط4، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل.
- الجرجاني، عبد القاهر (1991) أسرار البلاغة، ت: محمد محمود شاكر، ط1، القاهرة، مطبعة دار المدني.
- الجرجاني، علي بن عبد العزيز (2006) الوساطة بين المتبني وخصومه، ت: محمد أو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط1، بيروت: المكتبة العصرية.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل، ت: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، ط3، مصر، دار المعارف.

- الخطيب القزويني (2012): الإيضاح في علوم البلاغة، ت: محمد عبد القادر الفاضلي، بيروت: المكتبة العصرية.
- الرماني أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، ت: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، ط3، مصر، دار المعارف.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (2006): البرهان في علوم القرآن، ت: أبو الفضل الديماطي، القاهرة: دار الحديث.
- الزركلي، خير الدين (1980) الأعلام، ط5، بيروت: دار العلم للملايين.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف (2011): مفتاح العلوم، ت: عبد الحميد هنداي، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.
- عبد العزيز عبد المعطي عرفة (1985): قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، ط1، بيروت: عالم الكتب.
- العسكري، أبو هلال (1982): كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، ت: علي محمد البجاوي، بيروت: المكتبة العصرية.
- عمار، أحمد محمد سيد (1998): نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، ط1، دمشق: دار الفكر.
- العمري، محمد (1991): الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، ط1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (2002): الكامل في اللغة والأدب، بيروت: مؤسسة المعارف.